﴿۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [الحَجُّ: 60]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إثباتُ الحقِّ للمهاجرين في ردِّ العقوبةِ ونصرُهم على مَن بغَى عليهم

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلها وجهان، **الأوَّل**: لَمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى ثوابَ مَن هاجَرَ، وقُتِلَ، أو ماتَ في سَبيلِ اللّهِ، وما أعدَّهُ لهم من عِوَضٍ، ومن رزقٍ حسنٍ ومُدخلٍ مَرضيٍّ؛ أخبَرَ أنَّه لا يَدَعُ نُصرَتَهم في الدُّنيا على مَن بغَى عليهم، فهو تعالى القديرُ[1]، **والثّاني**: لَمّا ختمَ البيانُ القرآنيُّ الآياتِ السابقةَ - التي تضمَّنتِ الإذنَ للمظلومين في قتالِ الظّالمين - بصفةِ الحِلم، فكان ذلك مخيلةً لوجوبِ العفوِ عن حقوقِ العبادِ، كما في شريعةِ عيسى عليه السلام؛ نفى ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ إذنًا للمهاجرين فيمَنْ أخرجهم من ديارهم أنْ يخرجوهُ من دياره، ويذيقوهُ بعضَ ما توعَّده اللّهُ به من العذابِ المُهين، أيْ: بإثباتِ الحقِّ في ردِّ العقوبة[2].

تقريبُ اللهِ تعالى للمهاجرين والإقبال عليهم والإحسان إليهم

وإنَّما أفرد تعالى مضمونَ هذه الآية بالذِّكر مِن بعد ذِكْرِ ما أعدَّ للذين هاجروا في سبيل الله، ثم قُتلوا، أو ماتوا؛ تشديدًا في عقاب مَن يجور عليهم مِن أعدائهم؛ تناغيًا مع التَّشديد في الحديث عن الدار الآخرة التي يظهر فيها ذلك العقاب، في قوله: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: 1]، وإحسانًا إلى هؤلاء المهاجرين وإلى أعدائهم، حيث يُقرِّبُهم الله تعالى منه، ويُقبل عليهم، كأنَّه ذكَر ما يشفي صدورَ المهاجرين مِن الثواب: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقٗا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ

(1) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 7/ 530.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 78.

حَلِيمٌ﴾ مِن قبل ذِكْرِ: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ ... الآية؛ لتتهيَّأ نفوسُ المهاجرين للحِلْم والعفو عن أعدائهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَاقَبَ﴾: (عقب) له أصْلان صَحيحان، أحدُهُما: يدلُّ على تَأْخيرِ شيءٍ وإتْيانِه بعد غيرِه، والآخَرُ: يدلُّ على ارْتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبَةٍ، ومنه: عاقَبْتُ الرَّجُلَ مُعاقَبَةً وعُقوبَةً وعِقابًا، وسُمِّيَتْ عُقوبَةً؛ لِأنَّها تَكونُ آخِرًا وثانيَ الذَّنْبِ، والمُعاقِبُ الَّذي أدْرَكَ ثَأْرَهُ[2]، والعقابُ والعقوبةُ والمعاقبةُ تختصُّ بالعذاب[3]، وعاقَبَهُ على ذَنْبِه: جزاهُ سوءًا بما صَنَعَ[4]، ومعنى ﴿عَاقَبَ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أيْ: جازَى الظّالمَ بمثلِ ما ظَلَمَهُ[5].

2) ﴿بُغِيَ عَلَيْهِ﴾: (بغي) أصلان، أحدهما: طلبُ الشَّيء، والثاني: جنسٌ من الفَسادِ، فمن الأوَّل: بغى الرَّجلُ الخيرَ أو الشَّرَّ، أيْ: طَلَبَهُ، ومن الثّاني قولُهُم: بَغَى الجرح؛ إذا تَرامى إلى فساد[6]، والبَغْيُ: قَصْدُ الفَساد، وتجاوزُ الحقِّ إلى الباطلِ، والبغيُ: الظُّلمُ، وقيل: كلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدارِ - الذي هو حدُّ الشَّيء - بَغْيٌ[7]، ومعنى ﴿بُغِيَ عَلَيْهِ﴾: ظُلِم[8].

3) ﴿لَعَفُوٌّ﴾: (عفو) أصلٌ يدلُّ على تَرْكِ الشَّيْءِ، ومعنى عَفْوِ اللّهِ تعالى عنْ خَلْقِه: تَرْكُهُ إيّاهُمْ، فلا يُعاقِبُهُمْ فضْلًا مِنْهُ، وكُلُّ مَنِ اسْتَحَقَّ عُقوبَةً، فتَرَكْتَهُ، فقد عَفَوْتَ عَنْهُ[9]، والعَفْوُ: الصَّفْحُ عن الجاني وتَرْكُ عُقوبَةِ المُسْتَحِقِّ، وقيل: العَفْوُ: المَحْوُ، ومنه: عَفا اللّهُ عنْكَ، أيْ: مَحا، مِن عَفَتِ الرِّياحُ الأثَرَ، أيْ: دَرَسَتْهُ ومَحَتْهُ[10]، والمقصود بـ﴿لَعَفُوٌّ﴾ في الآية: اسمٌ من أسماءِ اللّه تعالى، وهوَ (فَعولٌ) من العَفْوِ، وهو التَّجاوزُ عن الذَّنْبِ وتَرْكُ العِقابِ عليه، وأصلُه: المَحْوُ والطَّمْس[11].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 39.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) الراغب، المفردات: (عقب).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عقب).
(5) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 349.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (بغي).
(7) ابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (بغي).
(8) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 349.
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عفو).
(10) الزبيدي، تاج العروس: (عفو).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (عفا).

4) ﴿غَفُورٌ﴾: (غفر) أصلٌ يدلُّ على السَّتْرِ، والغُفْرانُ والغَفْرُ: السَّتْرُ، يُقالُ: غَفَرَ اللّٰهُ ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا[1]، والمَغْفِرَةُ من اللّٰهِ: أنْ يصونَ العبدَ من أنْ يمسَّهُ العذاب[2]، والغَفورُ والغَفّارُ من أسماءِ اللّٰهِ جَلَّ ثَناؤُهُ، وهما من أبنيةِ المُبالَغَةِ، ومَعْناهُما السّاتِرُ لذُنوبِ عِبادِهِ المُتَجاوِزُ عن خَطاياهُم وذُنوبِهِم[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وغدُ اللهِ لعباده المهاجرين الذين قُتلوا أو ماتوا بأن ينصرَهم

يَعِدُ اللّٰهُ الذين هاجروا في سبيلِ اللّٰهِ، ثم قُتلوا، أو ماتوا - مع ما أعدَّ لهم من الرِّزقِ الحَسَنِ والمُدخلِ الكريمِ - بأنَّ لهم النَّصرَ على المشركين الذين بغوا عليهم، فأخرجوهم من ديارهم[4]، في صورةِ حُكمٍ عامٍّ عمَّن يقعُ عليهم الاعتداءُ، فيردّون بمثله بالعَدلِ دونَ زيادةٍ، ثم يقعُ عليهم البغيُ والعدوان، فيَعِدُهُم اللّٰهُ بنصره، إنَّ اللّٰهَ كَثيرُ العَفوِ والغُفرانِ لعِبادِهِ المُؤمنينَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

للمعاني محطاتٌ يجب الوقوفُ عندها في التَّلقّي والتَّدبُّر

فَصلَ البيانُ الإلهيُّ قولَهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ﴾ عن قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾، ولم يأتِ بينهما بعاطفٍ؛ لِما بينهما من كمالِ اتِّصال؛ لأنَّ ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ إشارةٌ إلى تقريرِ الكَلامِ السّابقِ الدّالِّ على ما وعده اللّٰهُ سبحانه لمَن هاجرَ في سبيله وقُتِلَ في سبيلِ اللّٰهِ، أو ماتَ من النَّصرِ والتَّمكينِ في صورةِ حكمٍ عامٍّ عمَّن يقعُ عليهمُ الاعتداءُ، فيردّون بمثله بالعَدلِ دونَ زيادةٍ، وهو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(2) الراغب، المفردات: (غفر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 675.

وهذه الجملةُ المُقرَّرة لما قبلها تُنبِّهُ على أنَّ ما بعدها كلامٌ مُستأنَفٌ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة وإيثار ما يدلُّ على البُعد:

قد تُمسِكُ كلمةٌ بما قبلها وبما بعدها

جاء اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ بعد إتمامِ المعنى والبدءِ في معنى آخر[2]، أيْ: هو يأتي للفصلِ بين الكلامَيْن؛ لأنَّ ما بعده غيرُ صالحٍ لأنْ يكونَ خبرًا عن اسمِ الإشارةِ، هذه الطريقة في النَّظم: ﴿ذَٰلِكَ﴾، ذات احتفالٍ عظيم بالمضمون الذي سيُتْلى قريبًا، كأنَّهُ بيانٌ مستقل عمّا قبله، والحالُ أنَّه ليس مُستقِلًّا[3]، فالغرضُ من هذا الفصلِ باسمِ الإشارة لَفْتُ أذهانِ السّامعينَ إلى ما سيَجيءُ من الكَلام المهمِّ لكي يهتمّوا به[4]، وأوثرَ في اسمِ الإشارة ما يدلُّ على البُعدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ للدَّلالة على بُعْدِ المنزلةِ كنايةً عن تعظيمِ مضمونِ ما قبله، وهو وعدُ اللّهِ الوثيقُ بتكريمِ وإرضاءِ عباده المظلومينَ[5].

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾:

الجمعُ بين الوعدِ بالنَّصرِ والوَعْدِ بالرِّزقِ الحَسَنِ والمُدخلِ المَرْضيِّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[6]؛ لما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ بجامع أنَّ كلًّا من المعطوفِ والمعطوفِ عليه يتضمَّنُ وعدًا من اللّهِ تعالى للمهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم، وجاهدوا في سبيلِ اللّهِ، إلّا أنَّ الثّاني وعْدٌ لهم بالنَّصرِ، والأوَّل وعْدٌ بالرزقِ الحسنِ والمُدخل المرضيِّ، وفي هذا العطفِ استمرارٌ للحضِّ على الجهادِ والتهيئةِ له، واستمرارٌ للوعدِ بالنَّصرِ الذي أشارتْ إليه الآياتُ السابقة[7].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 116.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 116.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 311.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 251.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 311.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 311.

معنى (مَنْ) وفائدة التَّعبير بها:

إمّـا موصـوليَّةٌ تفيدُ العمومَ، وإمّـا شـرطيَّةٌ تفيدُ النَّصرَ عندَ عدمِ التَّجاوز

تحتمل (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ أنْ تكونَ موصولةً في موضعِ رفعٍ بالابتداء، ونهايةُ صلتها: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾، والخبرُ ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾، وتفيدُ العمومَ لقوله سبحانه فيما سلفَ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجّ: 39]، وفي التَّعبيرِ عن هذا المعنى بأسلوبِ الجمعِ هناك وأسلوبِ المفردِ هنا الذي يدلُّ على العمومِ دلالة على كونهِ قاعدةً كليَّةً لسُنَّةٍ من سُنَنِ اللهِ تعالى في الأمم، ولَمّا أتى في الصِّلةِ هنا بفعلِ ﴿عَاقَبَ﴾ مع قصدِ شمولِ عمومِ الصِّلةِ للذين أُذن لهم بأنَّهم ظُلموا؛ عَلِمَ السّامعُ أنَّ القتالَ المأذونَ لهم به قتالُ جزاءٍ على ظُلمٍ سابق[1].

ويُحتملُ أنْ تكونَ شرطيَّةً قدْ سدَّ جوابُ القَسَمِ جوابَ الشَّرط[2]، أيْ: جعلَ شرطَ هذا النَّصرِ أنْ يكونَ العقابُ قصاصًا على اعتداءٍ لا عدوانًا ولا تبطُّرًا، وألّا يتجاوزَ العقابُ مثلَ ما وقعَ من العدوانِ دون مغالاةٍ.

الموقعُ النَّحويُّ لـ(من) في قوله: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾:

(مَـــن) ابـتـداءٌ لتقريرِ حُكمٍ عامٍّ للقضاءِ الدُّنيويِّ بـمـا يُـحـقِّـقُ الـعـدلَ ويقطعُ دابرَ الفساد

(مَن) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ في موضعِ رفعٍ بالابتداء، سواء كانتِ اسمَ موصولٍ بمعنى الذي - ونهايةُ صلتها: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾، والخبرُ ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[3] - أم كانتِ اسمَ شرطٍ جازمٍ سَدَّ جوابُ القَسَمِ مسدَّ جوابِ الشَّرطِ، أيْ: مَنْ عاقبَ بمثلِ ما عوقبَ به ينصرهُ اللهُ[4]؛ لأنَّ (مَن) لا يصلحُ أنْ تأتي خبرًا عن اسمِ الإشارة (ذلك)، وإنَّما يتعيَّنُ تقديرُ خبرٍ لاسمِ الإشارةِ في معنى (ذلك بيان)[5]، لتكون (مَن) ابتداءً لتقريرِ قاعدةٍ وحُكمٍ عامٍّ للقضاءِ الدُّنيويِّ بين النّاسِ بقانونِ عقابٍ يحقِّقُ العدلَ، ويقطعُ دابرَ الفساد.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 312.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 308.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 572.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 548، ودعاس، إعراب القرآن: 2/ 318.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 251.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿عَاقَبَ﴾ مادَّة وصيغة:

في العقاب عدلٌ وزجرٌ وإحسانٌ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن الفعلِ الذي هو جزاءٌ على الاعتداءِ بمُسمَّى العقابِ، فقال: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾، ولم يُعبِّر بمُفرداتٍ مُتقاربةٍ كالعذابِ أو الجزاءِ أو المؤاخذةِ؛ لكون معاني العقابِ في اللُّغةِ أنسبَ لسياقِ الآية هنا الذي يتحدَّث عن العقوبةِ بمعنى القصاصِ، وضرورةِ تحقُّقِ المِثْليَّةِ والعدلِ في القصاص؛ إذ إنَّ العقابَ من العَقِب، وهو أنْ يعقبَ الفعلَ الأوَّل[1]، أيْ: يدلُّ على تَأخيرِ شيءٍ وإتيانِهِ بعد غيرِهِ، ولذا سُمّيَتِ العُقوبة بهذا الاسم؛ لأنَّها تكون آخِرًا وثانيَ الذَّنبِ؛ ولأنَّ المُعاقِبَ هو الَّذي أدرَكَ ثَأْرَهُ[2]، كما أنَّ العقابَ يُنبئُ عن اسْتِحْقاقٍ؛ لأنَّ الفاعِلَ يسْتَحقُّهُ عَقيبَ فعله[3].

لا بُدَّ للمعاقِب أنْ يرجو في أخذِ حقِّه وأنْ يتحرَّى حسنَ العاقبةِ

وفي التَّعبير بالعقوبةِ إشارةٌ إلى ضرورةِ سرعةِ إقامةِ القصاصِ تحقيقًا للعدلِ وقطعًا لدابرِ الظُّلمِ والفساد، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: 179]، ويشيرُ كذلك إلى أنَّه لا بدَّ للمُعاقِب أنْ يرجو في أخذِ حقِّه، وأنْ يتحرَّى حُسنَ العاقبةِ بأن يكون ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ﴾، أيْ: عولجَ علاجَ مَنْ يطلبُ حسنَ العاقبة[4].

في التَّعبيرِ بالماضي تأكيدٌ لتحقُّق وقوع الفعل

ومجيءُ قوله: ﴿عَاقَبَ﴾ بصيغةِ الماضي الذي يدلُّ على تحقُّقِ وقوعِ الفعلِ في سياقِ جملةٍ شرطيَّةٍ، كان فعلها ﴿عَاقَبَ﴾ يشيرُ إلى وجوبِ معاقبةِ الظّالمِ والمُعتدي والأخذ على يديه؛ لأنَّ القرآن علَّق الوعدَ بالنَّصرِ على تحقُّقِ وقوعِ العقوبةِ على مَن اعتدى، ثم بُغي على المُعاقب، وخاصَّةً أنَّ الآيةَ جاءتْ حُكمًا عامًّا في التَّعاملِ الدُّنيويِّ، أيْ: جعلَ شرطَ النَّصرِ أنْ يكون العقابُ قصاصًا على اعتداءٍ لا عدوانًا ولا تبطُّرًا، وألّا يتجاوز العقابُ مثلَ ما وقعَ من العدوانِ دون مغالاة.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 517.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 79.

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِمِثْلِ﴾:

لـحـرفِ المعنى أكثرُ مِن معنى

الباء في ﴿بِمِثْلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ سببيَّةٌ، والمعنى: عاقبَ بسببِ مماثلٍ لِما وقعَ عليه من اعتداءٍ[1]، أيْ: شرعَ اللّهُ القصاصَ من المعتدي، وفي هذا بيانٌ لعدلِ اللّهِ بين عباده، وإشارةٌ إلى استمرارِ شريعته على الأرض؛ إذ بالعدلِ تقومُ الحياةُ وتستمرُّ، وتحتملُ أنْ تكونَ للآلة[2]، والتَّقدير: (عاقبَ بآلةٍ مماثلةٍ لِما عوقب به).

لا بـدَّ أن يكون المُعاقِبُ مقسطًا

وقد تكون الباءُ للتوكيد، أيْ: لتوكيدِ تحقيقِ التطابق في إيقاعِ العقوبةِ على المُعتدي؛ لأنَّها لو حُذِفتْ؛ لصحَّ المعنى (ومن عاقبَ مثلَ ما عوقب به)، وفي الباءِ إرشادٌ إلى ضرورة أن يكون المُعاقِبُ واقفًا عند المطابقة لا يتجاوزُها قيد أُنملة، فلمّا كان مظنَّةُ التَّجاوز لنقصٍ أكيدٍ في البشر، لكنَّه ليس بمُتعمَّدٍ، جاءت جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمِثليَّة ﴿بِمِثْلِ﴾:

لا يُحقِّق المِثْليَّة إلّا التَّقيُّ

المِثْل في قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ بمعنى الشَّبيه، وفي إعطاءِ حقِّ رَدِّ العقوبة بمثلها دون تجاوزٍ إلى ظُلمٍ تنفيسٌ عن النَّفسِ ممّا تحمله من الغيظِ، فخالقُ النَّفسِ البشريةِ هو أعلمُ بنوازعها وخَلَجاتها، وقد أباحَ لها إنِ اعتُديَ عليها أنْ تردَّ الاعتداءَ بمثله، حتى لا يختمرَ الغضبُ فيها، وينتج عنه ما هو أشدُّ وأبلغُ في ردِّ العقوبة، وحتى تنتهي المسألةُ عند هذا الحدِّ، ولا تتفاقم[4]، وهذا ما عناه البقاعيُّ بقوله: " أيْ: عولجَ علاجَ مَن يطلبُ حُسنَ العاقبة"[5]، ففي التَّعبيرِ بالمثليَّةِ تحقيقٌ للعدلِ.

---

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 946.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 296، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 103.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 39.

(4) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 16/ 9904.

(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 13/ 79.

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ﴾:

الإحساسُ بالظُّلم قد يُبعد المظلومَ عن العدل في أخذ حقِّهِ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ اسمٌ موصولٍ، بمعنى: (الذي)، وقد عبَّرَ به البيانُ القرآنيُّ؛ تشويقًا لمعرفةِ صلته، وهي الاعتداءُ الواقع على المُعاقِب، لِما يتضمَّنه الاسم الموصول من الإبهام، وكذلك بقصدِ التَّعميم؛ لكون ﴿مَا﴾ من ألفاظِ العموم، أي: إنَّ تَحقُّقَ المِثليَّةِ في العقابِ يجبُ أنْ يشملَ كلَّ أنواعِ الاعتداءِ وصورِهِ، وكذلك للإيماءِ إلى وجهِ امتلاكِ المعاقِبِ حقَّ إيقاعِ العقوبةِ بغيره، وهو ما وقعَ عليه من الاعتداء، والإبهامُ في: ﴿مَا﴾ مع مدِّ ألفها يتَّسع ليستوعب كلَّ وجوهِ الاعتداء، ويشير إلى خفاءِ المِثليَّةِ؛ لخفاء ما عوقب به للإحساس بالظُّلم، الذي يورِثُ المظلوم غضبًا وهيجانًا[1].

فائدةُ إضافةِ المِثليَّةِ إلى الاسم الموصول:

الزيادةُ في الاقتصاص خارجةٌ عن العدل

إضافةُ المِثليَّة ﴿بِمِثْلِ﴾ إلى الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ إضافةٌ بيانيَّة؛ للتّنبيهِ على وجوبِ تحقيقِ المثليَّةِ في معاقبةِ المعتدي بحيث تكون من جنسِ الاعتداءِ ومساويةً لمقدارِهِ بالعدلِ دون زيادةٍ أو نقصان، فلا يزيدُ في الاقتصاصِ، ولإفادة عموم ما يقع عليه التماثل من جميع أنواع العقوبات، منعًا لكلّ تدخّل نفسي في زيادة عقوبة أو نقصانها بما يخالف الشريعة.

نكتةُ بناء ﴿عُوقِبَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله:

القصاصُ من المعتدي لا يتعلَّقُ بشخصهِ؛ وإنَّما باعتدائهِ وظُلْمه

لم يأتِ البيانُ القرآنيُّ بفاعل ﴿عُوقِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾، أيْ: عبَّر بصيغةِ المبني للمفعولِ؛ لغرضين: أحدهما لفظيٌّ: هو الإيجاز[2]؛ إذ لو عبَّر بقوله: (بمثل ما اعتَدَى عليه المعتدي)؛ لكان في الكلامِ إطالةٌ تذهبُ بجماله، والثاني معنويٌّ: وهو التركيزُ على الحدثِ، وهو الاعتداء، أيْ: إنَّ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 39.

(2) ابن عقيل، المساعد على تسهيل الفوائد: 1/ 397.

القصاصَ من المعتدي لا يتعلَّقُ بشخصه، وإنَّما باعتدائه وظُلمه من أيِّ مُعتَدٍ كان، وخاصَّةً أنَّ المقصودَ من الآيةِ إعطاءُ صورةَ حُكمٍ عامّ عمَّن يقعُ عليهم الاعتداءُ، فيردّون بمثله بالعَدلِ دونَ زيادةٍ، ثم يقعُ عليهم البَغيُ والعدوان، فيَعِدُهم اللّهُ بنصره.

العدلُ هو الأساسُ مهما كان داعي القَصاص

وفي حذف الفاعل: (المعتدي) إرشادٌ إلى ضرورةِ أن تكون القضيةُ قضيَّةَ عدلٍ وظلم، فلا ينتقم المُعْتَدَى عليه لشخصه وذاته، وحينئذٍ يتحقَّق السِّلْمُ والسَّلامُ والأمنُ والأمانُ للفرد والمجتمع، وإلّا كان عكس ذلك[1].

نكتةُ تسميةِ الاعتداء عقوبة: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾:

في تسميةِ القصاصِ عقابًا إشارةٌ خفيَّةٌ إلى العفوِ وأنَّه أفضلُ وأكرم

سمّى البيانُ الإلهيُّ الاعتداءَ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ عقوبةً، رغم أنَّ ابتداءَ الفعلِ بالاعتداءِ لا يُسمَّى عقابًا؛ لاستواءِ الفعلَيْن – الفعل الذي هو عقوبةٌ، والفعل الذي هو اعتداءٌ – في جنسِ المكروه[2]، من بابِ كونه كنايةً عن المعاملةِ بالمِثْلِ، أو لملابسةِ الجزاءِ به له من حيث إنَّه سببٌ، وذاك مُسبَّبٌ عنه، كما يحملون النَّظيرَ على النَّظيرِ والنَّقيضَ على النَّقيضِ للملابسة[3]، أو لأنَّ الذي دفعَ المعتدينَ إلى الاعتداءِ قصدُ العقابِ على خروجهم عن دينِ الشِّركِ ونبذِ عبادةِ أصنامهم[4]، وخاصةً أنَّ القرآنَ قد صرَّحَ فيما مضى في السورةِ بأنَّ هذا العقابَ ظلمٌ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحجّ: 40].

المُعتدي والمُعتدَى عليه متساويان بعد القصاص

كما أنَّ في تسميةِ القصاصِ من المُعتدي عقابًا إشارةً من طرفٍ خفيٍّ إلى العفو، وذلك أنَّ المُعتدَى عليه إذا أخذَ بحقِّه، لا فضلَ له على المُعتدي، فقد تساويا بعد ردِّ الاعتداءِ، وقد كان العفو أفضل وأكرم[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 435.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 167.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 312.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1086.

بلاغةُ الجناسِ في الآية:

كلُّ أسلوبٍ إمّا مُـؤسِّـسٌ، أو مُـمكِّـنٌ أو هما معًا

بين اللَّفظَيْن: ﴿عَاقَبَ﴾ و﴿عُوقِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ إذ يرجعُ اللَّفظان إلى جذرٍ لغويٍّ واحدٍ هو (عقب)؛ إلّا أنَّ ﴿عَاقَبَ﴾ أتى فعلًا بصيغةِ المَبنيِّ للفاعل، و﴿عُوقِبَ﴾ أتى فعلًا بصيغةِ المَبنيِّ للمفعول، ممّا يُعطي جماليَّةً في السَّمعِ، ويُحقِّقُ عذوبةً وترنُّمًا بما يحملُ السّامعَ على الإصغاءِ، ويزيدُ المعنى وضوحًا، ويُساعدُ على ترسُّخهِ في الذِّهن، ويُؤكِّدُ على تمامِ العدل؛ إذ سَمَّى القصاصَ عقوبةً، ليدلَّ على تمامِ المعاملةِ بالمثلِ، ففي الجناس تمكينٌ لمعنى المِثليَّة المذكورة، وهي أن يكون الجزاءُ على قدر المَظلَمَة، لا يزيد عليها، كما لا يقلُّ عنها[1].

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِهِۦ﴾:

اعتداءُ الكافرين على المؤمنين مُلتصقٌ بهم بسببِ إيمانهم

باء ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ للإلصاق، أي: الاعتداءُ واقعٌ من المُعتدي ومُلتصقٌ بالمُعتدَى عليه، وهم المؤمنون الذين ما انفكَّتْ قريش تعتدي عليهم، ويحتملُ أنْ تكون للسَّببيَّة[2]، والتقديرُ: (بمثل ما اعتُدي عليه بسببِ إيمانه)، ويُحتملُ أيضًا أنْ تكونَ للآلة[3]، والحملُ على الإلصاق أقربُ إلى سياق العفو والمغفرة؛ لأنَّها تعني أنَّ الاعتداء التصق به، أيْ: كأنَّ المقصودَ حصولُ التَّأثير القوي الشَّديد النّاتج عن الاعتداء، وكأنَّ الاعتداءَ إذا لم يكن شديدًا؛ فعلى المُعتدَى عليه أن يعفو، ويغفر[4].

عودُ الضَّمير في ﴿بِهِۦ﴾:

في عودِ الضَّميرِ مبالغةٌ في تحقيقِ المِثليَّةِ في العقاب

ضميرُ ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ عائدٌ إلى العقاب الذي يقومُ به المعاقِب وهو ذاته الذي وقعَ على المُعتدي، والمعنى:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 103، والصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1246.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 180.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.

ومَن عاقبَ بمثلِ فعلِ الاعتداءِ الواقع عليه، و"لم يزدْ في القصاصِ على ما فُعل به"[1]، والمقصودُ أنْ تتحقَّقَ المماثلة في العقابِ سواءٌ في جنسهِ أو مقداره، فيكون في عودِ الضَّميرِ مبالغةٌ في تحقيقِ المثليةِ في العقاب، "فإنَّ المشركين آذوا المسلمينَ، وأرغموهم على مغادرةِ موطنهم، فيكون عقابُهم على ذلك بإخراجِ مَن يمكنهم أنْ يُخرجوه من ذلك الوطن، ولا يستطيعون ذلك إلّا بالجهادِ؛ لأنَّ المشركين كانوا أهلَ كثرةٍ، وكانوا مُستعصمينَ ببلدهم"[2].

معنى ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾؛ فـ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ لا الزَّمنيِّ؛ لأنَّ البَغْيَ عليه أهَمُّ من كَونِه عاقَبَ بمِثْلِ ما عوقِبَ به؛ إذ كان مَبْدوءًا بالظُّلْم، فكان المشركون محقوقينَ بأنْ يُعاقبوا؛ لأنَّهم بَغَوا على المسلمين[3]، ولأنَّ تفسيرها بالتَّراخي الزَّمنيِّ يُفسدُ الكلام؛ إذ يجعلُ العقابَ على الاعتداءِ غيرَ البَغي، أي: التَّراخي الرُّتبي يفيدُ تقييدَ العقابِ الأوَّل بكونه بغيًا.

البغيُ بعد العدلِ فجورٌ

وفي معنى التَّراخي كذلك إشارةٌ إلى بُعدِ ما بينَ مرتبةِ القصاصِ العادلِ والبغيِ الظّالم، وإنَّ اللّه تعالى ينصرُ العادلَ على الباغي[4]، وفي: ﴿ثُمَّ﴾ معنى استبعادِ وقوعِ البَغي مِن بعد حصول المِثْليَّة أو ما يقاربها، فهو مِن شأنه ألّا يكونَ، ومع الاستبعاد التَّعجُّب[5].

استبعادُ وقوعِ البَغي بعد حصول المِثْليَّة أو ما يُقاربها

دلالةُ التَّعبير بـ﴿بُغِيَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بمفردةِ ﴿بُغِيَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ

أهلُ البَغي أهلُ فتنةٍ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/ 548.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 313.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 313.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5014.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.

عَلَيْهِ﴾؛ لاتِّساع دلالتها، فمادَّةُ البغي تعني: الخروجَ عن الجادَّةِ وسلوكَ طريقِ الفساد، والبغيُ: هو الفسادُ والشِّدَّةُ، ثم أُطلقَ على التعدّي ومجاوزةِ الحدِّ بغيرِ حقٍّ، وعلى الظُّلم[1]، بل إنَّ البغيَ يعني التَّرقّي في الفسادِ والانتشارِ من قولهم: بغى الجرحُ؛ إذا ترقَّى، وترامى في الفساد[2]، فالتَّعبيرُ بالبغي يشملُ كلَّ اعتداءٍ وتجاوزٍ وظلمٍ تعرَّض له المُعتدَى عليه، وهذا يدلُّ على شمولِ نصرِ اللهِ لكلِّ مَنْ بُغي عليه بأيِّ نوعٍ من أنواع البغي، بما يُدخلُ الطُّمأنينةَ إلى قلوب المؤمنين بوعد النَّصر.

وأمّا بناءُ ﴿بُغِيَ﴾ للمفعول؛ فللدَّلالة على تحقُّقِ وقوعِ هذا البغي، بغضِّ النَّظرِ عن الباغي؛ إذ التركيزُ على الحدث، وهو وقوعُ الظُّلم[3]، وفيه بيانُ عِظَمِ جُرْم ذلك البغي في نفسه[4].

معنى اللّام في قوله: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ﴾:

لام ﴿لَيَنصُرَنَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ موطِّئةٌ للقَسَم، والجملةُ الفعليَّةُ جوابٌ لقَسَمٍ محذوفٍ، تقديره: (وعزَّتي وجلالي لينصرنَّ اللهُ المظلومَ على الظّالمِ في الحالِ أو المآل)[5]، وغرضُ القَسَمِ هو تأكيدُ نُصرةِ اللهِ لعبادِهِ المظلومين الذين بُغيَ عليهم، وإظهارهم على الظّالمين الباغين وتأييدهم عليهم في القتالِ، ودفعِ أيِّ شكٍّ في عدمِ نُصرتهم، وتأكيدِ تشريعِ حُكمٍ للمظلوم، وما وقعَ عليه من وصمةِ الظُّلمِ والبَغْي.

القَسَم طمأنَةٌ وشفاءٌ وإحسانٌ

فائدةُ تتابُعِ المؤكِّدات في ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾:

في تتابعِ المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ مِن القَسَم،

مِن مقامات التَّوكيدِ الوعدُ والوعيدُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (بغى).
(2) السمين الحلبي، الدرّ المصون: 6/ 174.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 135.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.
(5) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 334.

و(لام) القَسَم، و(نون) التَّوكيد الثَّقيلة مبالغةٌ في التَّأكيدِ على نُصرةِ الله تعالى للمُعاقِبِ المُقتصِّ الذي بُغِيَ عليه[1]، وفيه أيضًا لفتٌ إلى ما سيراه المُعتدَى عليه من عجائب في نصر الله له[2].

نكتةُ اصطفاءِ اسم الجلالة في: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾:

مَن كان الله معَه فمَن ذا يكون عليه؟

في اصطفاء اسم الجلالة: ﴿ٱللَّهُ﴾ إشارةٌ إلى كمالِ هذا النَّصر المذكورِ في قوله: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ﴾ وعظمته وفخامته، فهو نصرٌ يظهرُ في المعتدي الباغي، وفي المُعتدَى عليه، فلا تكون في نفْسِ المُعتدَى عليه أيَّة شائبةِ إحساسٍ بالظُّلم والبغي من بعد حصولِ ذلك النَّصر، ومِن أنواع هذا النَّصر زيادةٌ في الإيمان والتَّوحيد تَحْصُلُ للمُعتدَى عليه؛ إذا رأى نصْرَ الله ببصره وبصيرته، ولو عُبِّر بغير هذا الاسم؛ لما كان ذلك[3].

نكتةُ فصل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾:

عفوُ اللهِ ومغفرتُهُ لخلقِهِ قضيا بحكمته ألّا يأذنَ إلّا بمماثلة العقابِ

فَصَلَ القرآنُ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ عن الجملةِ التي قبلها، ولم يربطهما بعاطفٍ؛ لما بين الجملتَيْن من كمالِ اتِّصال؛ إذ إنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ جاء تَعليلًا للاقتصارِ على الإذنِ في العِقابِ بالمُماثَلةِ في ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ دونَ الزِّيادةِ في الانتقام، مع أنَّ البادئَ أظلمُ، فعفوُ اللهِ ومغفرته لخلقه قَضَيا بحكمته ألّا يأذنَ إلّا بمماثلةِ العقابِ للذَّنبِ؛ لأنَّ ذلك أوفقُ بالحقِّ.

صورٌ أخرى محتمَلةٌ للتعليل

ويَجوزُ أنْ يكونَ تَعليلًا للوعْدِ بجَزاءِ المُهاجرينَ ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ و﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا﴾؛ اتِّباعًا للتَّعليلِ في ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾؛ لأنَّ الكلامَ مُستمِرٌّ في شأنِهم[4]، أو أنْ يكون تعليلًا لعدمِ مؤاخذةِ المعاقِبِ على تركِهِ العفوَ الذي ندَبَهُ اللهُ إليه[5]، على اعتبارِ أنَّ في

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5014.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 313.
(5) الزَّمخشري، الكشاف: 3/ 167.

الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديرُهُ: (مَن عاقبَ بمثلِ ما عوقبَ بهِ إنَّ اللّهَ لعفوٌّ غفورٌ)، أيْ: لا يلومه على تركِ الأفضل، ثم إذا بُغي عليه، أيْ: على المظلوم المُعاقِبِ في الكَرَّةِ الثّانية لينصرنَّه اللّهُ على الظّالم[1]، أو تعليلًا لعدمِ مؤاخذتهم على قتالهم في الشهرِ الحرام؛ لّما بغى عليهم المشركون فيه[2].

يحتملُ أن يكون تكميلًا لمضمونِ الكلام قبله

ويُحتمل أن يكونَ قد جاء تكميلًا لمضمونِ الكلام قبله؛ إذ إنَّه – بعدَ أنْ شرعَ لهم القتالَ والانتقامَ – أشارَ إليهم بالعفوِ والمغفرةِ في موقفِ القصاص، وهذه الجملةُ عند البقاعيِّ استئنافٌ بيانيٌّ، هذا ما يُفهمه قوله: "ولّما قيَّد ذلك بالمِثليَّةِ، وكان ذلك أمرًا خفيًّا، لا يكاد يوقَف عليه، فكان ربَّما وقعت المجاوزة خطأً، فظنَّ عدم النُّصرة؛ لذلك: أفْهَمَ تعالى أنَّ المؤاخذة إنَّما هي بالعَمْد"[3].

فائدةُ تتابُعِ المُؤكِّدات في فاصلة الآية:

من النُّدرة عند النّاس عفوُ القادرِ على العقابِ

تتابعتِ المُؤكِّداتُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾: مِن ﴿إِنَّ﴾ التي تفيدُ التَّوكيد، والجملةِ الاسميَّةِ التي تفيدُ الثبوتَ والدَّوام، واللّام التي جاءت في ﴿لَعَفُوٌّ﴾ للتَّوكيدِ، وصيغةُ المبالغة في ﴿لَعَفُوٌّ﴾ (فعولٌ) من العفو، أيْ: إنَّه تعالى كثيرُ العفوِ، وهذه صفةٌ من صفاته، أو اسمٌ من أسمائه، وصيغةُ المبالغة في ﴿غَفُورٌ﴾ من (غفر)، أيْ: كثيرُ الغفران.

وهذا الحشدُ لكلِّ هذه المؤكِّدات يُفيدُ المبالغةَ في توكيدِ اتِّصافِ اللّهِ بالعفو والغفران، بما يُعدُّ تعريضًا بحَثِّ المؤمنين على التَّأسّي بصفاتِه سبحانه من العفو والصفحِ والمغفرةِ، فإنَّه تعالى مع كمالِ قدرته وعظيمِ شأنه لّما كان يعفو، ويغفرُ، فغيرهُ بذلك أوْلى، كما يفيدُ التَّنبيهَ على أنَّه تعالى قادرٌ على العقوبةِ؛ إذ لا يوصفُ بالعفوِ إلّا

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 10/ 518.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 90.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 168.

القادرُ على ضدِّه[1]، وكونُه تعالى عَفوًّا غفورًا - مع كمال اقتداره على أخْذ مَن يريد أخْذَه - خُلُقٌ غيرُ معهودٍ للنّاسِ، فأُكِّد بأكثر من مؤكِّدٍ؛ للدَّلالة على عجَبِهِ وبراعته وكماله.

نكتةُ التَّذييلِ بـ ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾:

حـربُ الإسـلامِ حـــربُ عـدلٍ وصفحٍ لا حرب انتقامٍ

في تذييل الآيةِ الكريمة بالاسمَيْن الجليلَيْن ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ تكميلٌ لمضمونِ الكلامِ قبله؛ إذ إنَّه لَمّا شرعَ اللّهُ لهم القتالَ والانتقامَ، ووعدهم بالنَّصرِ والتَّأييد؛ أشارَ إليهم بالعفو والمغفرةِ في موقفِ القصاصِ، واستحضارِ عفو اللّهِ ومغفرته في تلكَ الحال، الأمرُ الذي تنحلُّ به عزيمةُ الانتقام، وتذهب معه حميَّة النِّقمة، وخاصَّةً أنَّ العفو هنا، إنَّما هو من قادرٍ يملكُ الانتقام، ومن هنا لا يكون للمعتدي سبيلٌ إلى التَّمادي في اعتدائه، وفي إذلالِ مَنِ اعتدى عليه[2].

فائدةُ الترتيب في ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾:

مـــن شـأنـه ﷺ الـعُـلـوُّ في الإحسان

قَدَّمَ البيانُ القرآنيُّ صفةَ (العَفوّ) على صفةِ (الغفور) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ لأنَّ العفوَ ينبئُ عن المحوِ والإزالة، والمغفرةَ تنبئُ عن السَّترِ والتَّغطية، وإزالةُ الذَّنبِ ومحوه أبلغُ من سترِه وتغطيته، وهذا أنسبُ للمقامِ الذي يرسِّخُ حُكمًا عامًّا للقضاءِ الدُّنيويِّ بين الناس يرسمُ سبحانه من خلاله معالمَ العفوِ والصَّفحِ عند المؤمنين عند المقدرةِ، وفي التَّقديم أيضًا إسراعٌ بذِكْر ما يُحبِّبُ النّاسَ في ربِّهم؛ فالتَّبشيرُ بأنَّه عَفوٌّ أعلى من التَّبشير بأنَّه غفورٌ، على ما سبق من بيان الفرق بينهما، فذِكْرُ هذيْن الوصفين هنا إحسانٌ، والمبادرةُ بذِكْر أعلاهما إحسانٌ آخَرُ فوقه.

نكتةُ تنكيرِ الاسمَيْن الجليلَيْن ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾:

كـلُّ أحـدٍ يشهد بكمال صفاته إنْ طوعًا وإنْ كرهًا

نكَّرَ البيانُ القرآنيُّ الاسمَيْن الجليلَيْن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 77.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1087.

غَفُورٌ﴾؛ للدَّلالةِ على تفخيمِ عفوِ اللهِ وغفرانه بما لا يمكنُ أنْ تدركه بعقلك، بمعنى: أنَّه خارجُ حدودِ المعرفةِ لا تستطيعُ أن تتبيَّنه، فهو شيءٌ فخيمٌ عظيمٌ، لا يُحَدُّ حَدُّهُ، ولا يُقادرُ قَدرُهُ، ولا يبلغُ العقلُ شأوه، وخاصَّةً أن صيغتهما من صيغ المبالغة، وأنَّهما جاءا في سياقِ تكرارِ ذِكْرِ الاسمِ الجليلِ (اللّه) الذي يجمعُ جميعَ صفاتِ الكمالِ المُطلَقِ، وفي تعظيمِ هذَيْنِ الاسمَيْنِ إشارةٌ إلى تعظيمِ معناهما، وحثٌّ للمؤمنين على التَّأسّي بهما.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المعاقبة والمؤاخذة:

المؤاخذةُ قد تقتصرُ على المُعاتَبةِ، وهي أخفُّ من المعاقبةِ

يتقاربُ لفظا (المعاقبة) و(المؤاخذة) في معناهما؛ إذ يشتركان في أنَّ الفاعلَ استحقَّهما على ما صدرَ منه من ذنبٍ أو خطأ، ولكنَّ لكلٍّ منهما ملامحَ دلاليَّةً تُميِّزه عن الآخر، وإيضاحُ ذلك:

المعاقبةُ من (عقب)؛ وأصلهُ يدلُّ على ارْتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبَةٍ، وسُمِّيَتْ عُقوبَةً؛ لأنَّها تَكونُ آخِرًا وثانيَ الذَّنْبِ، والمُعاقِبُ الَّذي أدْرَكَ ثَأْرَهُ[1]، والعقابُ والعقوبةُ والمعاقبةُ تختصُّ بالعذابِ[2]، وعاقَبَه على ذنبه: جزاه سوءًا بما صنع[3].

والمؤاخذةُ: العقابُ، يُقال: آخَذَه بِذَنْبِهِ مُؤاخذةً: عاقَبَهُ، وأُخِذَ فلانٌ بِذَنْبِهِ؛ أيْ: حُبِسَ، وجوزيَ عليه، وعوقِب بِهِ[4]، وآخذَ الرَّجلَ مُؤاخذةً: عاتَبَه، ولامَه، وعابَه، ولا تؤاخذني: كلمةُ اعتذار[5].

والحاصل: أنَّ المؤاخذة أخفُّ من المعاقبة، فالمؤاخذةُ قد تقتصرُ على المعاتبةِ أو اللومِ، وقد تكونُ اعتذارًا، أمّا العقابُ؛ فهو أشدُّ ومختصٌّ بالعذابِ، وهو مجازاةُ فاعله سوءًا بما صنع.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(2) الراغب، المُفردات: (عقب).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عقب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أخذ).

البَغْيُ والجَوْر والظُّلْم والعُتو والاعتداء والعُدوان والطُّغيان:

ألفاظ تتقاربُ في دلالاتها اللُّغوية، ولكلٍّ منها ما يُميِّزها

تتداخلُ معاني هذه الألفاظ في اللُّغةِ، وتتقاربُ في دلالتها، وجميعها فيها معنى مجاوزة الحدِّ، وبيانُ ذلك:

البغيُ: الفسادُ والشِّدَّةُ، ثم أُطلِقَ على التَّعدّي ومجاوزة الحدِّ بغيرِ حقٍّ والظُّلم[1].

والجَوْرُ: العدولُ عن كلِّ حقٍّ، فهو عبارةٌ عن كلِّ مَيْلٍ عن الحقِّ والعدل[2].

والظُّلمُ: وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعه تعدّيًا، وهو أيضًا: تجاوزٌ عن المُستَحقِّ بمنعه وانتقاصه[3].

والعُتوُّ: الاستكبارُ والتَّجبُّر والعصيانُ، ومبالغةٌ في كبرٍ أو فسادٍ أو كفر[4].

والاعتداءُ والعدوان: تجاوزُ ما ينبغي أنْ يُقتصر عليه، وهو الظُّلمُ الصُّراح[5].

والطُّغيانُ: مجاوزةُ الحَدِّ في كلِّ شيءٍ، ويُطلقُ على مجاوزةِ الحَدِّ في المكروه مع غلبةٍ وقهرٍ، ومجاوزةِ الحدِّ في الظُّلم[6].

ولا تسعفنا المعاجم اللُّغوية بفروقٍ واضحة بين هذه الألفاظ، ولكن عند إمعانِ النَّظر في معانيها يمكنُ ملاحظة بعض الفروق الدلالية بينها، وهي:

البغيُ: شدَّةُ الطَّلبِ لِما ليس بحقٍّ بالتَّغليب، وهو بذلك يتضمَّن كلَّ أنواع الظُّلم والتَّعدّي والكبر معًا[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (بغى).
(2) الراغب، المفردات، ص: 211، والسمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: 1/ 358.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (ظلم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عتو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومجمل اللغة: (دعو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (طغى).
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 232.

والجَوْرُ: الميلُ عن الطَّريق[1]، وهو نَقيضُ العَدْلِ، وضِدُّ القَصْدِ، أو المَيلُ عَنهُ، والجَوْرُ: الظُّلم[2]، وهو عبارةٌ عن كلِّ ميلٍ عن الحقِّ والعدل[3].

والظُّلمُ: هو الميلُ عن القصدِ، والتَّعدّي سواءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا، حيث يتراوحُ الظُّلمُ ما بين أكبرِ الكبائرِ، وهو الشِّركُ باللّه تعالى، وبين ارتكابِ أصغرِ الذُّنوب[4].

والعُتوُّ: المبالغةُ في المكروهِ، كالكبرِ أو الفسادِ أو الكفرِ، لكنَّهُ لا يبلغُ مبلغَ البَغْيِ والطُّغيان[5].

والاعتداءُ: تجاوزٌ في الشَّيء، وتقدُّمٌ لِما ينبغي أن يُقتصر عليه، والعدوانُ: التَّعدّي في حدودِ اللّهِ، والظُّلمِ الصُّراحِ، وهو أسوأ الاعتداء[6].

والطُّغيانُ: تجاوزُ الحَدِّ في المكروهِ مع غَلَبَةٍ وقهرٍ، والغُلوُّ في ذلك، ويشملُ الإفراطَ في المعصيةِ والكِبْرِ والكفرِ، فالطَّواغيتُ هم رؤوسُ الضَّلالةِ؛ إذ أمروا النّاسَ أنْ يعبدوهم من دونِ اللّه، وفي ذلك غايةُ مجاوزةِ الحدِّ، وهو بذلك أشدُّ من البغي، وأشدُّ من العُتوِّ[7].

والحاصلُ أنَّ أشدَّ هذه الألفاظ هو الطُّغيان؛ لاشتماله على غايةِ الإفراطِ في المعصيةِ والكفرِ، ومجاوزةِ الحدِّ في المكروه، وفي الظلمِ والعُتوِّ، ويليه في الشِّدَّةِ: البغيُ؛ لاشتماله على التَّعدّي والفسادِ والظُّلم، ثم العُتوُّ؛ لأنَّه مبالغةٌ في المكروهِ من كِبْرٍ أو فسادٍ أو كفرٍ، ثم يليه الاعتداءُ والعدوان؛ لأنَّه تَعدٍّ على حدودِ اللّه، وظُلم صُراح، ثمَّ يليه الجورُ؛ إذ هو الميلُ عن الحقِّ والعدلِ، ثم يأتي الظُّلم، وهو أدناها، وتتفاوتُ درجاتُهُ من صغائرِ الذُّنوبِ إلى كبائرها وصولاً إلى الشِّركِ باللّهِ تعالى[8].

العفو والصفح والمغفرة:

تتقاربُ معاني هذه الألفاظ: (العَفْو) و(الصَّفح) و(الغُفْران)، فجميعها تشتركُ في تركِ العقابِ على الذَّنبِ وعدمِ المؤاخذة عليه، وقدِ اجتمعتْ هذه الألفاظ في آيةٍ واحدة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جور).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (جور).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 358.
(4) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 147.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 230.
(6) ابن فارس، مقاييس، ومجمل اللغة: (دعو).
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 230.
(8) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 143 - 148.

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [التَّغابن: 14]، ممّا يدلُّ على أنَّ هناك فرقًا بين هذه الألفاظ، وقد فرَّق بينها العلماءُ في أصلِ اللغة وفي الاستعمال.

العفوُ محوٌ للذَّنب، والصفحُ إعراضٌ عنه، والمغفرةُ سترٌ له

وقد فرَّق العسكريُّ بين الغفران والعفو والصَّفح، فذكر أنَّ الغُفرانَ يقْتَضي إسقاطَ العقابِ، وإسْقاطُ العقاب هو إيجابُ الثَّواب، فلا يسْتَحقُّ الغفرانَ إلّا المُؤمن المُسْتَحق للثَّواب، ولهذا لا يُسْتَعْملُ إلّا في الله، فيُقال: غفرَ اللهُ لَكَ، ولا يُقال: غفرَ زيدٌ لَكَ إلّا شاذًّا، والعَفو يَقْتَضي إسْقاط اللَّوم والذَّمِّ، ولا يَقْتَضي إيجابَ الثَّواب، ولهذا يُسْتَعْمل في العَبْد، فيُقال: عَفا زيدٌ عن عَمْرو، وإذا عَفا عَنهُ؛ لم يجبْ عليه إثابته.

والصفحُ هو التَّجاوزُ عن الذَّنب، من قَوْلك: صفحتُ الورقةَ؛ إذا تجاوزتَها، وقيل: هو تركُ مُؤاخذَةِ المذنبِ، وأنْ تُبديَ لَهُ صفحةً جميلَةً[1]، والحقُّ أنَّ المغفرةَ تُقال في حقِّ العبد؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [الجاثية: 14].

والحاصل أنَّ لفظَ العفوِ يتميَّز بمعنى التَّرْكِ ومحوِ الذنبِ فضلًا ممَّن يعفو، ويتميَّز لفظُ الصَّفحِ بمعنى الإعراضِ عن الذَّنْبِ وتركِ التَّثريب، وإبداء صفحةٍ جميلةٍ، ويتميَّز لفظُ المغفرةِ بمعنى سترِ الذنب وتغطيته، فأبلغُ هذه الألفاظ الصفحُ، ثم يأتي بعده العفو، ثم المغفرة.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 235 - 236.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»